

قراءة في كتاب:

# الإمام السيوطي وكتابه: التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ

عرض الأستاذ: عبد الواحد محمد راجب

يقول الإمام السيوطي عن سبب تأليفه كتاب «التحدّث بنعمة الله» إن التحدّث بنعمة الله مطلوب شرعاً لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ وأورد في هذا الشأن عدة أحاديث نبوية تحث على التحدّث بنعمة الله شكراً، وتحذر - ضمناً - من التحدّث بها استطلاعة وتكبراً..

والتحدّث بنعمة الله يورث المزيد منها، لأنه شكر، والشكر يقتضي الزيادة، لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. ويستشهد السيوطي بما يقوله ابن القيم: «إن الشيء الواحد تكون صورته واحدة، لكن يتقسم إلى: محمود، ومذموم. من ذلك: التحدّث بالنعيم، شكراً، أو فخرأً بها.. فالأول: يقصد به إظهار فضل الله وإحسانه، ومدحه، والثناء عليه، وبعث النفس على الطلب منه، دون غيره، وعلى رجائه.. والثاني: القصد به الاستطلاعة على الناس، وإظهار أنه أعز منهم، وأكبر، واستعباد قلوبهم، واستئثارها.

هكذا بدأ السيوطي كتابه «التحدّث بنعمة الله» ليبرر به سبب تأليفه لكتاب يتحدّث فيه عن نفسه، أو بالأحرى عن أعماله، وعما أفاض الله عليه من علم، فاق به نظراءه، يذكر ذلك من قبيل الشكر لله.. فهو عبارة عن ترجمة لذاته، وجهده وعمله..

والكتاب قامت بتحقيقه: أليزابيث ماري سارتنين، من كلية الدراسات الشرقية، جامعة كامبردج، بإنجلترا، وطبع بالقاهرة، بالمطبعة العربية الحديثة، عام 1972م، وخرج في 384 صفحة، من الحجم

الأقل من الوسط (مقاس ٢٢×١٤ سم) بما فيها الهوامش والتعليقات، الموضوعية في نهاية الكتاب، وكذا الفهارس.

وقد اعتمدت المحققة في عملها على نسخة خطية، موجودة بمكتبة توينجن بألمانيا، كما رجعت إلى بعض المخطوطات التي اعتمد مؤلفوها على كتاب «التحدث بنعمة الله» ونقلوا منه فقرات، وذلك مثل مخطوطة «بهجة العابدين» للشاذلي، ومخطوطة الداوودي، التي أورد فيها مسموعات السيوطي عند ترجمته له..

ويحتوي الكتاب على ٢١ فصلاً، أضافت إليها المحققة الجزء الذي نقله كل من الشاذلي، والداوودي، ووضعتها تحت عنوان «ملحق» ثم أوضحت منهجها في عملية التحقيق، والجهد الذي بذلته في قراءة الأصل، ومحاولتها تصويب النص، والهوامش التي وضعتها لهذا الغرض، ثم الفهارس، وعموماً فإن الجهد الذي بذلته المحققة، هو جهد تستحق عليه الإشادة والتأييد، من كل عاكف على خدمة التراث الإسلامي، ومحبه له.. وقد وضعت كل مجموعة من فصول الكتاب تحت أرقام متسلسلة إلى النهاية، لسهولة الرجوع إليها، عند التعليقات الموضوعية في نهاية الكتاب.

#### عرض محتوى الكتاب:

بدأ المؤلف كتابه بما ذكرناه في المقدمة. من أن التحدث بنعمة الله مطلوب شرعاً، بغرض توجيهه لله تعالى. دون المباهاة والتكبر، ثم استشهد على أن العلماء السابقين له، قد كتبوا لأنفسهم تراجم، ولم في ذلك مقاصد حميدة، كالتحدث بنعمة الله، والتعريف بأحوالهم ليقندي بهم، ويستفيد منها من لا يعرفها، ويعتمد عليها من أراد ذكرهم في تاريخ، أو طبقات، وقد فعل ذلك الإمام عبد الغافر الفارسي، أحد حفاظ الحديث، والعماد الأصبهاني، والفقيه عمارة العيني، وياقوت الحموي، ولسان الدين الخطيب، والإمام أبو شامة، وتقي الدين الفاسي، وابن حجر، وأبو حيان.. ثم يقول: «وقد اقتديت بهم فوضعت هذا الكتاب، تحدثاً بنعمة الله، وشكراً، لا رياء ولا سمعة، ولا فخراً».

ثم يتحدث عن نسبه، مبيئاً جهود والده العلمية، وكذا ما وصل إليه بعض أجداده من مراتب علمية وراثية، فهو: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد بن خضر بن أيوب بن محمد بن الهمام، الخضير، الأسيوطي، مبيئاً عجزه عن معرفة سبب نسبه إلى «الخضير» تماماً كما عجز ابن السمعاني عن تعليل نسبه إلى «السمعاني» مع أنه ألف كتاباً حافلاً في الأنساب،

وكذا عجز التاج السكي عن تعليل نسبه. مع أنه ألف كتاباً في التراجم، وهو الطبقات الوسطى.. ولا يعاب هذا على العلماء.. والسيوطي، أو الأسيوطي، نسبة إلى أسيوط، إحدى البلدان الكبرى في صعيد مصر، التي ينسب إليها أجداده، الذين كانوا من أهل الوجاهة والرياسة فيها، حيث استوزرهم الملوك والأمراء، ومنهم من ولي القضاء، والحسبة، والفتيا، والتدريس، وأن والده وُلدَ بها، أما هو فقد وُلدَ بالقاهرة، ثم استطرد في ذكر مشاهير العلماء الذين ينسبون إلى أسيوط، وقال: إنه أفرد لها تاريخاً حسناً في مجلد لطيف، اقتداء بمن أفرد من المحدثين لبلده تاريخاً كتاريخ مكة، لكل من الأزرق، والقاسمي، وتاريخ المدينة المنورة، لكل من الزبير بن بكار، وابن النجار، وزين الدين المراغي، وعفيف الدين المطري، وتاريخ بيت المقدس لأبي القاسم مكّي بن عبد السلام، ثم عدّد مجموعة كبيرة من المصنفات في تاريخ المدن والبلدان... كتاريخ إصهان، وتاريخ الأندلس، وتاريخ بغداد، وتاريخ سمرقند، وتاريخ اليمن. وغيرها.

اشتهر بلقب جلال الدين، وكان جلال الدين الهلي قد بدأ في تفسير القرآن الكريم تفسيراً مختصراً مسيراً، بدأه بالمعوذتين حتى وصل إلى سورة الإسراء، ثم توفي دون أن يكمله، فأكمّله السيوطي، وعرف هذا التفسير «بتفسير الجلالين» أي جلال الدين الهلي، وجلال الدين السيوطي.

ولد ليلة الأحد مستهل رجب عام ٨٤٩هـ، ونشأ يتيماً، حيث توفي والده في شهر صفر عام ٨٥٥هـ، ولم يكن هو قد جاوز السادسة من عمره، لكنه جد في طلب العلم، وتحصيل الدروس، منذ صغره، حتى فاق أقرانه، وبزّ أثره، وأخذ عن كثير من العلماء، يقول:

وأجاز لي خلق كثير، من الديار المصرية، والحجاز، وحب، وقد جمعت معجماً كبيراً في أسماء من سمعت عليه، أو أجازني، أو أنشدني شعراً، قبلغوا سبائة نفس.. وشيوخ الرواية منهم أربع طبقات. ثم عدّد أسماء شيوخه من الطبقات الثلاث الأولى، فبلغ عددهم مائة وثلاثين شيخاً، منهم تسعة وعشرون من النساء الفضليات، اللائي بلغن مرتبة عالية في العلم، حتى كن جديرات بأن يأخذ السيوطي العلم على أيديهن، وأن يشيد بفضلهن.. وفي الطبقة الرابعة أكثر من مائتي نفس، هو مساو لهم في الدرجة.

وأورد فصلاً لفتاوي خالف فيها فتاوي والده، التي أفتى بها من قبل، معللاً ذلك بأمرين: أولها: إفادة العلم من أنه لا يستجيزكم ما ظهر له من العلم مخالفاً لما عليه غيره، بل يديه وينشره، لأن الله جل جلاله أقامه في منصب الإجتهد.

وثانيها: ليلمس الناس عذره في مخالفة أهل عصره، ويعلموا أنه ليس غرضه من تلك المخالفة، المغالاة والتعصب، بل الغرض هو اتباع الحق، وترك الشبهة في الدين، فإنه لو حابهاً أحداً، لكان أحق الناس بالشبهة هو والده، لكنه لا يجاني في الدين والدأ ولا غيره..

ثم أورد فضلاً لثلاثة أحاديث نبوية ... يقول إنها ثلاثة أحاديث عشارية، أي ليس بينه وبين النبي ﷺ، فيها إلا عشرة أنفس من الرواة، وقال إن هذا في غاية العزة. ثم أوردتها بستدها .. وبعدها أورد أحاديث صحيحة أخرى، بينه وبين النبي ﷺ، من الرواة أحد عشر راوياً، أتى منها بعشرة أحاديث بالنص..

وقال: «إتته في ربيع الآخر عام ٨٦٩هـ، توجهت إلى الحجاز الشريف، لأداء فريضة الحج، وقد جمعت فوائد من هذه الرحلة، وما وقع لي بها، وما ألفتته فيها، أو طالعته، أو نظمته، ومن أخذت عنه من شيوخ الرواية، كل ذلك في تأليف سميت «التحفة الزكية في الرحلة المكية» ثم عاد إلى وطنه عام ٨٧٠هـ، وقام برحلة إلى دمياط والإسكندرية، واجتمع بعلماء هذين البلدين، وبغيرهما ممن مرَّ عليه من البلدان .. في ذهابه وعودته، ثم لما رجع من تلك الرحلة إلى القاهرة جلس للتدريس في شوال عام ٨٧٠هـ، فحضر درسه العديد من طلاب العلم، ومن كانوا قد جلسوا من قبل للتدريس، وفي عام ٨٧٢هـ، ابتدأ في إملاء الحديث على طلاب العلم، وكان إملاء الحديث قد انقطع بموت المحافظ ابن حجر، منذ عشرين عاماً، فأمل ١٥٥ مجلداً، غير متصلة، ثم تصدى للإفتاء، وجمع معظمها في ثلاثة مجلدات، وفي عام ٨٧٧هـ، تولى تدريس الحديث بجامع الشيخونية بالقاهرة، وكان يدرس فيه الحديث من قبل المحافظ ابن حجر عام ٨٠٨هـ.

#### مصنفاته:

بلغت مصنفات جلال الدين السيوطي ٤٥٨ مؤلفاً، وهو كم هائل، يقف الإنسان العادي أمامه مبهوراً، لا سباً وأن بعضها يحتوي على عدة مجلدات .. ومعروف أن من يتصدى للتأليف في أي علم، لا بد أن يقوم بالإطلاع على أضعاف أضعاف ما يقوم بتأليفه في هذا العلم، من كتب ومراجع لغيره .. كي يبني قريحته بما يملكه على قلمه فكيف تسنى له أن يقرأ أضعاف تلك الكتب؟ ومعروف أن الكتب في عصره كانت مخطوطة .. ولا يتم تداولها في الغالب، إلا بنقلها خطياً .. والبعض كان يسافر لمسافات بعيدة كي يحصل على كتاب سمع عنه! .. إن البحر الزاخر بالتراث الإسلامي، هو نتاج هذه

العقول الفذة .. التي يطلق عليها بحق أئمة المسلمين .. وأياً كان فقد قسم السيوطي مؤلفاته إلى سبعة أقسام:

القسم الأول: ادعى فيه التفرد، أي أنه لم يؤلف له نظير من قبل، وكما يقول: لا لعجز المتقدمين - معاذ الله - ولكن لم يتفق أنهم تصدوا لمثله، وهم ثمانية عشر كتاباً. بعضها بحوي عدة مجلدات، منها كتاب «الاتقان في علوم القرآن» و«الدرر المنثور في التفسير بالمأثور» و«أسرار التنزيل».

القسم الثاني: ما ألف فيه ما يناظره، ويمكن للعلامة أن يأتي بمثله، ككتاب «الخصائص النبوية» و«لباب النقول في أسباب النزول»..

القسم الثالث: ما تم تأليفه من الكتب الصغيرة الحجم - من كراستين إلى عشرة - مثل كتاب «التحجير في علم التفسير».

القسم الرابع: ما كان كراساً وحوه، مثل كتاب «كُتُب الأقران في كتب القرآن» و«اللمع في أسماء من وضع».

القسم الخامس: ما ألف في موضوعات الفناوي، وهي من كراس، وفوقه، ودونه، مثل كتاب «المصايح في صلاة الزواجر» و«بسط الكف في إتمام الصف».

القسم السادس: مؤلفات لا يعتد بها [يقول] ألّفها زمن السماع، وطلب الإجازات، مع أنها مشتملة على فوائد بالنسبة لما يكتبه الغير.

القسم السابع: ما شرعت فيه، وكتبت منه قليلاً، ثم فتر العزم عنه فلم أتمه.

ثم أتى بفصل ذكر فيه ما كُتِبَ على بعض مؤلفاته من تقييد ومدح، قائلاً: إن أول مؤلفاته كان «شرح الاستعاذة والبسمة» و«شرح الحيلة والحوقة» وذلك عام ٨٦٥هـ، وقد قرظها شيخه علم الدين البلقيني، وكتب غيره من المشايخ بمدح مؤلفاته الأخرى، كشمس الدين القادري، والشمسي، وعبي الدين المالكي الأنصاري، وشهاب الدين الحجازي، وغيرهم، وانتشرت كتبه في حياته، وتلقاها العلماء بالقبول والاستحسان، وكثير منها نال الإطراء والثناء .. وسعى في طلبها العلماء والطلاب على حد سواء .. وقد أتى بفصل ذكر فيه كيف كان العلماء يكتبونه رغبة في الحصول على بعض تلك الكتب، يقول فيه: .. ومن ذلك أنه في عام ٨٧٥هـ قدم من المغرب الشيخ يحيى بن أبي بكر - المشهور بابن الجحود المصري، واشترى مجموعة من تصانيفي، وسافر إل بلده، وعاد بعد سبع

سنتين، ومعه أخوته، وسمع هو وأخوته مني الحديث، وكتبوه عني، وفي عام ٨٧٤هـ ذهب بعض أصدقاء والدي إلى الشام، والعراق، واستنبول، ومعهم بعض مصنفاتي، فعرّفها الناس، وقرأها العلماء، وأقبل الجميع عليها - وأتى طالب من الشام حسن الخط، يقال له: نور الدين بن البيطار، فأقام أكثر من سنة يكتب مؤلفاتي، إلى أن حصل على أكثر من ثلاثين كتاباً، وذهب بها إلى الشام، ثم قدم مرة أخرى، ونقل أكثر من عشرين كتاباً وذهب بها، وفي عام ٨٧٩هـ، سافر أحد تلامذتي إلى الحجاز، ومعه كتاب «الأشباه والنظائر» فنقله منه طالب من البجانبين، وذهب به إلى بلاد اليمن، وراه معه قاضي الحجاز ابن ظهيرة، فنقل منها نسخة، ثم كتب ابن ظهيرة لبعض أصدقائه في القاهرة، ليكتب له «تكملة تفسير الجلال المحلي» وغيره من كتب .. ثم سافر طالب من تلامذتي إلى الحجاز عام ٨٨٧هـ، ومعه مجموعة من مؤلفاتي فنقلوها منه هناك .. وسافر بعد ذلك جمع من تلامذتي، ومعهم بعض مؤلفاتي، فكاتبوا ينقلونها منهم .. ووصلت مؤلفاتي إلى الهند، وفارس، والسودان، وغيره ..

#### محتواه:

ويبدو أن شهرة السيوطي الذائعة، قد جعلته يدفع ثمنها غالباً، وجلبت إليه كثيراً من المتاعب .. وذلك حين نفس عليه البعض، غيرة وحسداً، فأرادوا النيل منه، وسلكوا في سبيل ذلك كل مسلك .. ونراه قد أتى بفصل عنوانه «ذكر نعمة الله عليّ في أن أقام لي عدواً يؤذيني، وابتلائي بأني جهل بغمضتي، كما كان للسلف مثل ذلك» استهله بالآية الكريمة، من قوله تعالى «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ» ويقول الرسول ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم العلماء، ثم الصالحون..» ثم أتبع ذلك بالعديد من الأحاديث والآثار، التي تناولت هذا الموضوع، وأنه ما كان كبير في عصره قط إلا كان له عدو من السفلة، فكان لآدم عليه السلام إبليس، ولإبراهيم نمرود، ولموسى فرعون، ولنبيينا محمد - عليه وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام، كان له - أبو جهل وزمرته، ولم يسلم كبار الصحابة من ذلك، فكان للحسن بن علي مروان بن الحكم، ولابن عمر رجل يؤذيه كلما مرّ عليه، ولابن عباس نافع بن الأزرق، وهذا سعد بن أبي وقاص، أحد العشرة المبشرين بالجنة، لاقى من جهال أهل الكوفة الشيء الكثير، وقد شكوه إلى عمر بن الخطاب، حتى قال له عمر: شكوكك في كل شيء، حتى قالوا إنك لا تحسن أن تصلي!! .. ثم ما قاساه الإمام مالك من أهل عصره، وما لاقاه الإمام الشافعي من جهال أهل مصر .. وما عاتاه الإمام ابن حنبل، وما قاساه البخاري من أئداده، والغزالي من أعدائه، وغيرهم من المتقدمين والمتأخرين.

ثم يقول: وفي ذي القعدة عام ٨٧٩هـ، أثار بعض الجهال عليّ نائرة، بسبب مسألة الحلف بالطلاق على غلبة الظن .. وكان أهل الشام يفتنون فيها بالحنث، وأهل مصر بغير الحنث، فجلست أبحث في هذه المسألة، وأتتبع قول العلماء السابقين فيها، حتى اطلعت على مجموعة بخط العلامة شمس الدين ابن القحاح، أحد مشايخ التاج ابن السبكي، فوجدته ذكر فيها فصلاً طويلاً من كلام القاضي تقي الدين ابن رزين، تلميذ ابن الصلاح .. قرأت ذلك وغيره، وقررت فيها الحنث مخالفاً بذلك ما عليه أهل مصر، وموافقاً ما عليه أهل الشام .. أفيتت بهذا حين كنت أدرس بالجامع الطولوني، وحررتها في كتابي «الأشباه والنظائر» وعندها أثار عليّ هذا الجاهل المتبديء نائرة ذوي الأهواء من العلماء، وكان من بينهم الشيخ شمس الدين الباني، الذي أفتى بعدم الحنث، وقال: إن هذا هو المذهب، ومن قال بغير ذلك يلزمه التعزير..

لقد جرت عادة العلماء إذا أفتوا في مسألة فقهية، أن يتناولوا آراء غيرهم فيها ثم يتبعونها بآرائهم، وأدلتهم على ما ذهبوا إليه، ثم يحنثون ذلك بقولهم .. والله أعلم .. وبعضهم يحطّء ما ذهب إليه غيره .. أما أن يطالب بتعزير من خالفه .. فأمر نادر الحدوث .. لقد هاج وماج التلاميذ .. والعلماء أيضاً.. وأصبح السيوطي في موضع الإتهام .. بالقدر الذي يقلل من رتبته العلمية، ويضع من قدره وجهده العلمي، إن لم يسارع بتقديم الأدلة والبراهين على صحة فتواه، ويأتي بما يبرر ساحته من التعزير، وتطلعت الأنظار إلى السيوطي تترقب ما يأتي به، فإذا به يتنفض إلتفاضة الواثق من نفسه، ويجب بما يفحم الخصم، بل يعيد السهم إليه، حين يقول: أنا إنما ذكرت شيئاً نص عليه الإمام الشافعي في موضعين من كتاب «الأم» وقال به جماعة من أئمة الصحابة المتقدمين، وقال به من المتأخرين ابن الصلاح، وابن رزين، والقمويني، والأذرمي، والزركشي، والكمال الدميري، والشيخ ولي الدين العراقي .. أفترى هؤلاء جميعاً يلزمهم التعزير؟! .. بل أنت أيها الشيخ الذي يلزمك التعزير لعدة وجوه.

١- إنك أفتيت بحظ نفسك، وعلى عدو، وحق المفتي أن يفني بحكم الله، لوجه الله، فإن المفتي موقَّعٌ عن الله، ومخير عنه سبحانه، لا عن نفسه.

٢- إنك زعمت أن من نقل خلاف المذهب يلزمه التعزير، ونحن قامت لدينا الأدلة، والنقول، على أن المذهب هو الحنث، وأن عدم الحنث خلاف المذهب، فإن كان من نقل خلاف المذهب يلزمه التعزير، فأنت الآن نقلت خلاف المذهب، فيلزمك التعزير، مع أننا لا نقول بذلك، لكنه جواب جدلي.

٣- إن إفتاءك بتعزيز من قال ذلك، هو حكم نسبته إلى الله، وأنت كاذب على الله فيه، لأن أكثر ما كان يمكن أن يقال في هذا المقام هو أن يقال: إن قائل ذلك محطىء. ولم يحكم الله، ولا رسوله، على محطىء بتعزيز، ولا إثم في باب الاجتهاد، بل وعداه بالأجر إن أخطأ، وللمصيب أجران.. فمن أين جاء لزوم التعزيز؟.. ما جاء ذلك إلا من قبل نفسك، والشيطان..

يقول السيوطي: ثم إنني زدت في الكرامة التي ألقينا في هذه المسألة نقولاً، وأبحاثاً، وكسبا الطلبة، وتداولوها بأيديهم، وأرسل إلى كثير من أهل الشام يطلبونها.

ولما بلغ هذا الجاهل ما وقع بيني وبين أزدمر، حاجب الحجاب، من إنكاره عليه ما صدر منه في حق السنة والصحابة، ذهب إليه ليعينه عليّ، وملاً مسامحة من ذمي، لكن الله رد كيده في نحره. وكان ذلك عام ٨٧٩هـ. وكنت وقتها قد قلت هذا النثر: «شاهت الوجوه، وخرس اللكع، وفض فوه، ولعن إبليس وجنوده وذووه، لقد جئت وأجبت، وما يؤت بل أصبت، وغصت اللجة، فأوضحت الهجة، وأفتت الحجة، وحررت النقل والدليل، وميزت الصحيح من العليل، فعمدت سوقة، موقفة، إلى العناد مشوقة، جهلت العلم وأضلت الحلم. لا مقدارها عرفت، ولا أهل العلم أنصفت، فلم يفهم الخطاب، ولم يفهم الصواب. فرامت توهين المعتمد بلا سند.. فقطعنا بسيف الحق رأسهم، وأزهقنا بروح العلم أنفاسهم..»

وبعد ذلك يقول السيوطي: ثم إنني رتبت أسئلة تتعلق بحروف المعجم، وأخرجتها لمن أبرز قوته في هذه المسألة، من الرؤوس، فلم يجز أحد منهم عنها جواباً من ذلك الحين وإلى الآن. وهي: «الحمد لله، يقول الفقير العاجز عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، منادياً بالملأ على رؤوس الأشهاد، من أدعى أنه في العلم والفهم مُقَدِّم، فليجب عما استقيم من الأسئلة المتعلقة بحروف المعجم، ومن عجز عن تحرير ألف، باء، تاء، ثاء، فليستصغر نفسه عن أن يقرر أبحاثاً؟! .. وهي:

السؤال الأول: ما هذه الأسماء: ألف، باء، تاء، ثاء، جيم.. إلخ. وما مسماها؟.. وهل هي أسماء أجناس، أو أسماء أعلام؟.. فإن كان الأول، فمن أي أنواع الأجناس هي؟. وإن كان الثاني فهل هي شخصية، أو جنسية؟. فإن كان الأول، فهل هي منقولة أم مرتجلة؟. فإن كان الأول فبِمِ نُقلت؟. أمن حروف، أم أفعال، أم أسماء أعيان، أم مصادر، أم صفات؟. وإن كانت جنسية، فهل هي من أعلام الأعيان، أو المعاني؟.

السؤال الثاني: من وضع هذه الحروف، وفي أي زمن وضعت، وما مستند واضعها، هل هو العقل، أو النقل؟..



السؤال الثالث: هل هذه الحروف مختصة باللغة العربية، أو عامة في جميع اللغات؟

السؤال الرابع: الألف والهمزة، هل هما مترادفتان، أو مفترقتان؟ وعلى الثاني، لما الفرق، وأيهما الأصل؟..

السؤال الخامس: لِمَ أجمع علماء اللغة، والعدد، وغيرهم من المتكلمين على المفردات على الابتداء بحرف الهمزة، وهل هو أمر اتفاقي، أو لحكمة؟..

السؤال السادس: كلمات: أجدد، هوز .. إلى آخرها، هل هي مهملة، أو مستعملة، وما عُني بها، وما أصلها، وكيف نقلت إلى المراد بها، وما ضبط ألفاظها؟..

السؤال السابع: ما حكمها في: الابتداء، والوقف، والمنع، والصرف، والتذكير، والتأنيث، والإعراب، والبناء، واللفظ، والرسم، وعند التسمية بها؟ وما حكمها شرعاً عند نقشها على ثوب، أو بساط، أو حائط، أو سقف، وهل للحروف المجتمعة، أو المتفرقة حرمة؟..

ثم يقول السيوطي: فهذه سبعة أسئلة، من أجاب عنها فهو من الرجال، وإلا فلا منزلة له على الأطفال!..

ولم يذكر السيوطي، في كتابه هذا، إجابة لتلك الأسئلة التي تحدى بها، ولو فعل لأفاد فائدة جمة .. ولا ندري هل تعرض لها في إحدى مؤلفاته الأخرى أم لا؟..

المهم أنه أورد قضية أخرى أثارها عليه خصمه هذا، وهي عبارة عن فتواه في هدم مكان استأجره البعض، واجتمعوا فيه لمزاولة أنواع من الفساد، فأقضى بهدمه وذهب خصمه إلى عدم إجازة هدم المكان .. وراح يستعدي عليه العلماء، والفقهاء، وعامة الناس .. وناصره في ذلك الشيخ الباني، كما هي عادته، وأقضى بتعزير من قال بالهدم .. لكننا نجد السيوطي يتصدى لهم، ويدلل على ما ذهب إليه بالعديد من أفعال وأقوال الصحابة، وما نص عليه أئمة المذاهب الأربعة .. ثم وجه في نهاية رده كلمة إلى الشيخ الباني قال فيها: «..أنا لا أنكر علمك ومشيتك! .. لكن مثل ومثلك، كما قال الشيخ عبدالله المنوفي لبعض شيوخه، حين وقعت بينها مشاحة وخصومة: أنت يا شيخ رجل عالم، ولكن ما أدبك العلم! ..» وقد ألف السيوطي في هذه المسألة مؤلفاً سماه «رفع شعار الدين وهدم بناء المفسدين» ويسمى أيضاً: «هدم الحاني على الباني» وقد انتهت هذه الواقعة بعث أحد أتصار هؤلاء المفسدين - وكان من حاشية فتوة الغوري - في مهمة رسمية خارج البلاد .. فلم يجدوا لهم مناصراً، فظفروا،

وخلال المكان الذي كانوا يتجمعون فيه لمزاولة الفساد .. لكن جذوة الجدل الفقهي في هذه المسألة، ظلت مشتعلة، وكان ذلك عام ٨٨٦هـ.

كما حدثت مشاحة بينه وبين خصمه أيضاً في مسألة الطلاق في النكاح الفاسد. هل يقع أم لا؟ .. وأيضاً في حديث صلاة القنوت..

وفي سنة ٨٨٨هـ، كان مبدأ نائراً الشيخ الجوجري، وهو الشيخ شمس الدين محمد بن عبد المنعم ابن محمد، ولد عام ٨٢١هـ، يقول عنه السيوطي: كان في زمن شيوخنا يُعد من أذكيا الطلبة وفضلاتهم. إلا أن لديه حركة زائدة، وكثرة كلام، ومسارة إلى القول دون تثبت ولا تأمل، ولم يبرع في شيء سوى الفقه، ولم يبلغ فيه مبلغ الإمامة، بل الحد الذي كان عليه زمن كونه من أفاضل الطلبة، لم يزد عليه .. ولقد جاورت أنا وإياه بمكة المشرفة، في سنة ٨٦٩هـ، وعمري إذ ذاك عشرون سنة، فكنت أجلس أنا وإياه في حاشية المطاف، بالمسجد الحرام، قبل المغرب بساعة إلى ما بعد العشاء، نتحاور في أنواع العلوم، فما جاراني في شيء منها، فضلاً عن أن يسبقني .. وكنت أستحضر في غرائب المنقولات، ودقائق الفنون الخفية، معزّوة إلى قائلها، من الكتب المشهورة والغريبة، حتى يقضي هو والحاضرون العجب من ذلك .. ثم تنتقل إلى نظم الشعر، وغيره .. وقد طلبت منه في تلك السنة شرحه الذي ألفه على «الشذوره» فامتنع، خشية أن أكتب عليه حاشية، أو اعترض عليه، فقلت له: أنت آمن من ذلك .. فأرانيه، فأحطت به، ثم رددته إليه، ووفيت له بما أمنته .. ولما مات شيخ الإسلام المناوي، انجهدت الأعين إلى الشيخ فخر الدين المقدسي، كي يحل محله في الفقه والتقرير والإفتاء .. غير أنه ما لبث هو الآخر أن توفي، وشغرت القاهرة بمن له جلد وصبر على غوغاء الطلبة. وكان الشيخ الجوجري قد اتخذ له مكاناً في الجامع الأزهر يدرس لبعض الطلبة، فلما شغل المكان انتهالت عليه الطلبة، وتوافد إليه المستفتون، فأطلق قلمه بالصواب وبغيره - يقول السيوطي: - ولا أدفع الرجل - أي الجوجري - عن معرفة، ولا أنسبه إلى جهل. ولكن الرجل ليس من المتسكّنين، الذين بلغوا مبلغ الإمامة، وأكثر ما يسأل عن الوقائع المشهورات، والمسائل الواضحات، فيجيب فيها بالصواب. ويُسأل عن أشياء غير منقولة، أو الثقل فيها عزيز، فلا يستحضره، ويجب من تلقاء نفسه فيخطئ.. ثم يسفه من يخالفه ممن اتقن المسألة وعرفها، وينسبه إلى الخطأ والمجازفة. بينا هو المخطئ والمجازف! ..

ثم يسوق السيوطي ما وقع بينه وبين الشيخ الجوجري من مسائل خلافية، طال فيها الأخذ والرد، وأقتضت منه أن يؤلف فيها بعض المؤلفات .. واشتعلت حدة الخصومة بين السيوطي، وبين الجوجري وأنصاره، حين أثيرت دعوى الاجتهاد، أي فتح باب الاجتهاد الذي كان قد أوصد من قبل، وينادي

السيوطي بفتح، ويعترض على ذلك الجوجري وأنصاره، ورفعوا الأمر إلى ذوي الشأن والسلطة، وطالبوا بعقد مناظرة بينهم وبين السيوطي لبحث هذه المسألة، فأجابهم السيوطي بأنه مستعد لذلك، لكن على أساس ما نص عليه العلماء من قبل من أنه لا يجوز، ولا يسوغ للمجتهد أن يناظر المقلد، فناظرني - أي السيوطي - نحتاج إلى حضور مجتهدين، أحدهما يناظرني، وثانيها يكون حكماً بيني وبين من يناظرني .. فأتوني بها! .. وكأنه بذلك يؤكد أن أيّاً من خصومه لم يرق إلى رتبة المجتهدين .. لكن ذوي المروءة، والشأن، والسلطة، تدخلوا وأنها الخصومة بينها، بعد جهد جهيد .. ولم يلبث أن توفي الجوجري بعد ذلك بشهرين.

ثم يذكر السيوطي ما أتم الله عليه به من التبحر في العلوم، وبلوغ رتبة الاجتهاد، وذلك في فصل مستقل، تال لما سبق، يقول في بدايته: قد رزقت - والله الحمد - التبحر في سبعة علوم: التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والمعاني والبيان والبدیع، على طريقة العرب البلغاء، لا على طريق المتأخرين من العجم، وأهل الفلسفة .. ودون هذه السبعة في المعرفة: أصول الفقه، والجدل، والتصريف .. ودونها الفرائض، والإنشاء، والترسل .. فلا أقول إن مرتبتي في الإنشاء والترسل تبلغ مرتبة الشهاب محمود، ولا ابن عبد الظاهر، ولا ابن فضل الله .. بل هي دون ذلك، في حد التوسط .. ودون ذلك في المعرفة: القراءات .. ولم آخذها عن شيخ، ولذلك لم أقرنها أحداً، لأنها فن إسناد، مع أنني ألقت فيها تأليفاً بديعاً .. وأما الحساب فأعسر شيء عليّ، ويثقل عليّ النظر فيه. لعدم ملامته لطبي.

ويعقب ذلك بفصل عن بلوغه رتبة الاجتهاد المطلق في الأحكام الشرعية، وفي الحديث النبوي، وفي العربية. ثم يوضح الفرق بين الاجتهاد المطلق والمقيد. ومن العلماء من بلغ هذا، وذاك من سابقه .. وهو فصل ممنع .. ثم أتبع ذلك بفصل عن المبعوثين على رأس كل مائة سنة. ممن يحدد هذه الأمة أمر دينها .. متعرضاً بالذكر للأحاديث النبوية، والمأثور الوارد في هذا الشأن ..

ويختم الكتاب بفصل عن إختياراته في الفقه، أي اجتهاداته في بعض المسائل الفقهية، خلافاً ما ذهب إليه مشايخه، ثم إختياراته في علم الحديث، وأصوله، وفي النحو ..

ويلاحظ أن السيوطي لم يصرح باسم خصمه الذي كان يطلق عليه عبارة «الجاهل» مع أنه صرح ببعض أسماء الخصوم الآخرين، أمثال الشيخ شمس الدين الباني، والجوجري، ولا ندرى ما سبب هذا؟! وما الداعي لعدم التصريح باسمه، كما أنه ذكر أيضاً وصفاً لرحلته إلى الحجاز، لأداء فريضة الحج. وبين الكتب التي قام بتأليفها أثناء رحلته، ومجاورته في الحرم المكي، والشيوخ الذين أخذ

عنه، وكان من بينهم ابن ظهيرة، قاضي مكة في ذلك الوقت، والذي تحدث عنه بإفاضة. وعن علمه، ثم يقول إنه وقعت بينها خصومة. نتيجة لسعي بعض أهل السوء بينها. واستمرت هذه الخصومة - حتى بعد أن عاد السيوطي لموطنه، القاهرة - لمدة عشرين عاماً، ثم تصالحا في النهاية. وزال ما بينها من جفاء، وحل محلها المودة والصفاء..

كما كان من أشد الناس خصومة للسيوطي. وأكثرهم تجرعاً له. وتشهيراً به. المؤرخ شمس الدين السخاوي، صاحب كتاب «الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع» فقد ترجم للسيوطي. ونال من علمه، وخلفه، وعدد عليه بعض المآخذ العلمية. وطعن في مقدراته وجهده العلمي.. وقد بلغ السيوطي ذلك فانصر لنفسه في مقامة سماها «الكاوي على تاريخ السخاوي» كما انتصر له فريق من تلاميذه، وكذلك فريق من العلماء ممن أتوا بعده، كان من أقدريهم الإمام الشوكاني. صاحب كتاب «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» عندما ترجم للسيوطي. فقد لخص المآخذ التي عددها السخاوي، ورد عليها واحدة واحدة. مبيناً تحامل السخاوي. وعدم إنصافه. لعالم انتشرت مؤلفاته في الأقطار، وسارت بها الركبان، ورفع الله له من الذكر الحسن، والثناء الجميل. ما لم يكن لأحد من معاصريه، وأما دعوى أنه كثير التصحيف والتحريف، فهي مجرد دعوى عاطلة عن البرهان. فهذه مؤلفاته محررة أحسن تحرير، ومتقنة أبلغ إتقان. ثم يقول الشوكاني، في نهاية رده: وعلى كل حال فهو غير مقبول عليه، لما عرفت من قول أئمة الجرح والتعديل، بعدم قبول قول الأقران بعضهم في بعض. مع ظهور أدنى منافسة، فكيف بمثل المنافسة بين هذين الرجلين، التي أفضت إلى تأليف بعضهم في بعض.

وواقع أن الإمام الشوكاني قد أنصف في دفاعه عن جلال الدين السيوطي وفند مآخذ خصومه، ومطاعهم عليه، وقطع كل مقولة حين أشار إلى مؤلفاته العديدة، المحررة أحسن تحرير، والمتقنة أبلغ إتقان، والتي وصلت أيدينا أجزاء يسيرة منها، فوجدناها تحمل بين دفتيها أبين دليل على رتبة جلال الدين، ومدى ما ارتقى إليه السيوطي، ليحتل مكانته بين الأئمة المجتهدين.

